تتأثر قيمته العلمية بما فيه من مقاييس جاهزة أو عشوائية، أو بما فيه من تعميمات وسطحية؟.

ونجد أن كتاب «الرواية والواقع» لمحمد كامل الخطيب يقدم نموذجاً عن الدراسة النقدية الروائية التي تعمل من داخل نفسها على اجهاض مشروعها العلمي، لا بتوجهها الإيديولوجي - الذي رأينا سابقاً - فحسب، بل بما تحتوي عليه أيضاً من تعارض في الآراء؛ بحيث يتبنى الناقد الشيء ونقيضه في الوقت نفسه، ومن استنتاجات سريعة مع ابتسار التحليل وسُرعة الأحكام. هذا مع اللجوء أحياناً إلى مراوغة القارىء وربما استغفاله في بعض الحالات. ونحاول أن نقدم اعتماداً على الدراسة نفسها بعض النماذج الدالة:

التناقضات:

● في الوقت الذي ينفي فيه الناقد وجود عنصر الصراع بين الشخصيات في رواية «السفينة» لجبرا إبراهيم جبرا، يتحدث بعد ذلك مباشرة عن أن تقنية «السفينة» تقوم على «تعدد الأصوات» (ص: 36). ومصطلح «تعدد الأصوات» لم تستخدمه المناهج الاجتماعية التي تأثرت بالماركسية، بل إنه مصطلح تولد في الحقل الشكلاني، وبالذات مع ميخائيل باختين[140]، وهو مصطلح يشير بالذات إلى الطابع الحواري القائم بين مختلف الأصوات والرؤى المعبر عنها داخل الرواية، ومع ذلك فلا نظن أن الناقد استخدم هذا المصطلح بالحمولة النظرية التي نجدها له في حقل سوسيولوجيا النص الروائي.

إن تعدد وجهات النظر في الرواية يؤدي بالفعل إلى تعددية الأصوات، وهذا يولد صراعاً بالضرورة على مستوى الفكر في الرواية وقد يكون له مظهر اجتماعي أو حدثي داخل الرواية نفسها. وعلى الرغم من ذلك نرى الناقد يُصِرُّ على أن الرواية، بتعدُّدية أصواتها، تخلو من الصراع؛ لأن مفهوم الصراع في نظره متّصلٌ بمثال واحد، أي الصراع الطبقي. ولذلك تصبح جميع آراء الناقد مشدودة إلى خارج النص حتى ولو تعلق الأمر بالكلام عن بناء الرواية في ذاتها، وهذا يؤدي إلى الوقوع في تناقضات تنفلت من كل رقابة واعية للناقد[141].

● يُصدِرُ الناقد محمد كامل الخطيب حكماً عاماً على مجموع روايات حليم بركات فيقول:

---

(140) أنظر ما قلناه بصدد هذا المصطلح في الجزء الثالث من القسم الأول، وخاصة عند الكلام عن باختين.

(141) أنظر التناقض نفسه يتكرر مع رواية: **البحث عن وليد مسعود**. للكاتب نفسه. **الرواية والواقع**، ص —42